بقايا الفصاح

تتصرّف العامّة في طوائف من الألفاظ الفصيحة تصرفاً عجيباً ، فإمّا أن تنقل معانيها من الحقيقة إلى المجاز وإمّا أن تحوّل هذه المعاني عن وجهها الشريف إلى وجهٍ دنيء ، ثم نراها في كثيرٍ من الأحيان تحافظ على معاني بعض التراكيب فلا تختلف هذه المعاني عمّا كانت عليه قبل ألف سنةٍ ، وقد نجدها تطلق أسماءً فصيحة على بعض المسمّيات إلاّ أن هذه المسمّيات لا تلبث أن تذهب فتموت الأسماء بذهابها أو تكاد .

فمن الألفاظ التي حوّلت العامّة معانيها عن وجهٍ إلى وجهٍ لفظة : الشبرقة ، لقد عاشت هذه اللفظة في لغتنا العامّة في دمشق حتى يومنا هذا ، ولكنّها لم تعش على أصل معناها فقد تصرّفت العامّة في هذا المعنى بعض التصرف ، فمن معاني الشبرقة في اللغة الفصيحة : نهش البازي الصيدَ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www..alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتمزيقه وقطع الثوب ... أمّا الشبرقة في لغتنا العامّة فلها معنى آخر ، فالشبرقة أن يشتري الولد من ههنا وههنا على سبيل التسلية ، فالأهل يدفعون إلى ولدهم يسيراً من المال ويقولون له اذهب إلى السوق وتشبرق ، أي اذهب واشتر ما يروقك من مأكول أو مشروب ، اذهب وأنفق ما أعطيناك ، فأيّ صلةٍ بين معنى هذه اللفظة الفصيح وبين معناها العامي ، أيّ صلةٍ بين نهش البازي صيده وتمزيقه وبين شراء الولد ما يترُ به في السوق ، لا نجد في الظاهر شيئاً من هذه الصلة ، ولكن إذا اجتهدنا في الأمر بعض الاجتهاد اهتدينا إلى ظلٍّ من الصلة على سبيل المجاز ، فكما ينهش البازي صيده ويمزّقه حتّى لا يبقى من هذا الصيد أثر فكذلك ينفق الولد ما دفعه إليه أهله من المال في شراء كذا وكذا حتى لا يبقى من هذا المال شيء ، فكما أن البازي نهش صيده فكذلك الولد نهش ماله أي صرفه كلّه . هذا تعليل قد نصيب فيه أو نخطئ ولكنّا نقبله على ظاهره حتى نهتدي إلى تعليل أقوى .

ومن هذا القبيل لفظة : النشّال الشائعة على ألسن أهل مصر ومعناها : السارق ، فالنشّال في اللغة الفصيحة كشدّاد من يأخذ حرف الجردقة ، وهي الرغيف ، فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه ومن معاني : نشل الشيء أسرع نزعه ، من هذا يتبيّن لنا أنّ النَّشّال العامية أصلها فصيح ولكنّ العامّة تصرّفت في معناها فنقلت هذا المعنى من وجه إلى وجهٍ على سبيل المجاز ، فكما أنّ من ينشل الشيء يسرع نزعه ، فكذلك من ينشل الشيء من الثياب يسرع نزعه بحيث لا تقع عليه عين صاحبه ، وكما أنّ النشّال الفصيحة من يأخذ حرف الرغيف فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه فكذلك النشّال العامية من يأخذ الشيء من ثياب صاحبه فيغمسه في جيبه ويستأثر به ، فالمعنيان الفصيح والعامي متقاربان ولكن هذا التقارب على سبيل المجاز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذا النمط ، وإن كان الأمر يختلف بعض الاختلاف لفظة : الشعوذة ، فقد اتسعت العامّة في معنى هذه المادّة وفسحت لآفاقها ، فالشعوذة في اللغة خفّة في اليد وأخذ كالسحر يُري الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين وهو : مشعوِذ ومشعوَذ ، (بكسر الواو وفتحها) ، إلاّ أنّ العامّة اختارت كسر الواو ولم تكتف بأصل معنى هذه المادّة فقد وسّعت آفاقه ونقلته من معنى ضيق إلى معنى أرحب ، فلجأت إلى المجاز وأطلقت الشعوذة على كل نوعٍ من أنواع الخفّة والسحر في السياسة أو العلم أو الدين ونظائر هذه الأمور ، فلم تبق الشعوذة في لغة العامّة والخاصّة خفّة في اليد أو أخذاً كالسحر ولكنّها أصبحت خفّة في كثير من الأمور ، فهي خفّه في ستر حقائق الأشياء ، فالمشعوذ يرينا السياسة بغير ما عليه أصلها في رأي العقل وكذلك يرينا العلم أو الدين أو ما شابه ذلك ، وإذا كان المشعوذ قد يطول أمر شعوذته في خفّة يده أو سحره فإن المشعوذ في أمور السياسة أو الدين أو العلم قد يُفضح أمره في هذه الخفة وفي هذا السحر فينكشف باطنه وتعرف شعوذته ، وما أظن أن لفظاً من الألفاظ أقوى من لفظ الشعوذة في الدلالة على هذه الطبقة من الناس .

بقيت لفظة لا تحتاج إلى كثير من التعليل ، فهي عامية ولكن أصلها فصيح ، نقول في لغتنا العامة : فلان ذلق ... أو فلان ذلق لسانه ... ونحن نريد بقولنا هذا أن فلاناً كان يكتم عنّا أشياء ولا يريد أن يبوح بها إلاّ أنه في خلال حديثه قد تخونه الذاكرة فيبوح بما كان يكتمه فنقول : فلان ذلق فقال كذا وكذا ... وقد تعدّي العامّة هذه المادّة وتستعمل الفعل المشدّد فتقول : ذلّقه حتى قال كذا وكذا ... ماذا نجد في اللغة، إنّنا نجد : ذلق اللسان كفرح ذرب فهو ذلق وأذلق ... وذلق اللسان كنصر وكرم فهو ذليق وذلق بالفتح إلى آخر ما جاء من مشتقات هذا الفعل ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فاللسان الذليق هو اللسان الحديد ، البليغ ، ثم نجد معنى أذلقه : أقلقه وأضعفه ، ولا نريد التوسع أكثر من ذلك في معاني هذه المادّة ، فالقول العامي : ذلق فلان فقال كذا وكذا .. لا يطابق القول الفصيح : ذلق اللسان فهو ذليق بمعنى بليغ ولكن قول العامّة : ذلّقه فقال كذا وكذا . . . لا يبعد كثيراً عن أذلقه بمعنى : أقلقه وأضعفه ، فقد يأتي بعد هذا الإقلاق أو هذا الإضعاف حمل الإنسان على البوح بما يكتم ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الأغاني في الكلام على وقعة بدر ، فقد قبض على غلامين اعترفا بأنهما سقاة لقريش ولكن القوم رجوا أن يكون الغلامان لأبي سفيان فضربوهما ، فلمّا أذلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان إلى آخر ما جاء في هذا الخبر ، فالذي يهمنا منه إنما هو فعل : أذلقوهما وما أدّى إليه هذا الإذلاق ، أي هذا الإقلاق والإضعاف ، فقد أدّى إلى الاعتراف بما يرضي الذين ضربوا الغلامين ، وإن كانت بقية الخبر تدلّ على أن الغلامين كانا صادقين فيما لقريش وليسا لأبي سفيان .

فإذا رجعنا إلى قول العامة : ذلّقه فقال كذا وكذا . . . وجدنا شيئاً من التقارب بين القول العامي والقول الفصيح ، والفرق بينهما أن العامّة تستعمل : ذلّقه بالتشديد ، واللغة الفصيحة تستعمل : أذلقه ، ومهما يكن من الأمر فإن الإذلاق أو التذليق إنما نتيجته البوح بما هو مكتوم سواء أوقع الإقلاق والإضعاف أو لم يقع .

وإذا انتقلنا من هذه الطبقة من الألفاظ إلى طبقة ثانية وجدنا أن العامّة قد تتصرف في بعض المعاني أقبح تصرّف ، فمن الألفاظ الفصيحة لفظة : العِلق ، (بكسر العين وتسكين اللام) ، ومعناها في اللغة : النفيس من كل شيء ، والجمع : أعلاق وعلوق ، إلاّ أن هذه اللفظة لم يبق لها في لغة العامّة معناها الفصيح ، فقد تصرفت فيها أسوأ تصرّف فأطلقت العلق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على كل مخنَّث أو متغنِّج من الناس ، وهي تريد به أقبح الذم ، ولا يسرّ أحداً أن يقال فيه أنه علق ، واختارت العامة من صيغة الجمع : العلوق وطرحت الأعلاق في لغتها ، فإذا قالت في جماعة من القوم أنهم علوق فقد بلغت من قبح تصويرهم في المجتمع كلّ مبلغ ، وهكذا نجد أن بعض الألفاظ الفصيحة قد تنحدر في لغة العامّة من أفقها الأعلى إلى الأفق الأدنى .

وإذا كانت العامّة قد تتصرّف في بعض الأوقات في معاني فئةٍ من الألفاظ فإنها قد تحافظ في كثيرٍ من الأحيان على معاني تراكيب فصيحة استعملت في قديم أدبنا ، من هذه التراكيب : فلان يدي ورِجلي ... الكلام معك ضائع ... يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين .

نجد في الأغاني في أخبار منصور النمري هذه العبارة : استقبلت منصوراً النمري يوماً من الأيّام فرأيته مغموماً ، واجماً ، كئيباً فقلت له : ما خبرك ، فقال : تركت امرأتي تطلق وقد عسر عليها ولادها ، وهي يدي ورجلي والقيّمة بأمري وأمر منزلي .... فهذه العبارة : فلان يدي ورجلي لا تزال مستفيضة في لغة العامّة ، وقوّتها ظاهرة ومعناها جزل ، فالذي يكون يدك ورجلك في أمورك إنما هو المعوّل عليه في هذه الأمور ، لا تستطيع أن تعمل عملاً دونه ، وهل يستطيع أن يتحرّك من لا يدَ له ولا رجل ، وهكذا نجد أن التراكيب السهلة ذات المعنى الخصب قد تعيش دهراً طويلاً في لغة العامّة فضلاً عن لغة الخاصة .

ومثل هذا التركيب في القوة قولنا : الكلام معك ضائع ... في أخبار حمّاد الراوية في الأغاني أن الطرمّاحَ أنشده قصيدة في مسجد الكوفة ، فلمّا سمعها حمّاد ادّعاها ونفاها عن الطرمّاح ، فطال الكلام بينهما في هذا الشأن حتى قال الطرمّاح لحمّاد : أنت رجل ماجن ، والكلام معك ضائع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد يشتدّ النزاع بين رجلين وقد يكون أحدهما على حقٍ فيحاول أن يقنع الآخر بالحجة ، أو أن يوبّخه إن كان يستلزم التوبيخ أو أن يدخل على ذهنه فكراً من الأفكار فيجده كأنه حائط ، لا يقنع ولا يلين ولا يأخذ بالصواب ، فتنفد حيلته معه فلا يهتدي إلى سبيل من السبل في ردّه إلى الصواب ، فلا يجد في مثل هذه الحال أبلغ من قوله : الكلام معك ضائع ... فلا الحجة تنفع ولا التوبيخ يفيد ولا المنطق ينجح ، فكل أمرٍ من هذه الأمور ونظرائها لا طائل فيه ، فالكلام مع هذا الرجل ضائع ، فهذه العبارة تغني عن كل حجة وعن كل توبيخ وعن كل منطق فضلاً عن أنها تجنّبنا كل عاقبة غير محمودة ، فما أحسن شيوعها على ألسن العامّة والخاصة حتى يومنا هذا .

أمّا التركيب الأخير : فلان يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين فلا تقلّ قوّته عن أخويه ، نقرأ في الأغاني في نسب أبي العتاهية وأخباره أن أبا العتاهية لمّا تنسك جلس يحجم اليتامى والفقراء ليضع من نفسه وليكتسب الثواب وهو لا يعرف ما يحتاج إليه كل واحدٍ من الناس إلى أن يخرجه من الدم على قدر طبعه ممّا إذا زاد فيه أو نقص منه ضرّ المحجوم ، فقال بشر لأبي العتاهية : ما أراك إلاّ أردت أن تتعلّم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين !

هذه العبارة شائعة على ألسن الناس ، عامّتهم وخاصّتهم ، إلاّ أنهم يستعملون الرؤوس بدلاً من الأقفاء ، فقد يتطاول أحدنا لأمرٍ من الأمور ولم يأخذ لهذا الأمر عدّته ولا هيّأ له أسبابه ولا عرف مصادره وموارده ، ومع هذا فهو يدّعي العلم بهذا الأمر فيمارسه على جهله به والله أعلم بما يتمّ فيه على يده من الأذى ، ولكنّه يريد أن يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا أريد أن أختم هذا المقال دون الإشارة إلى لفظة قد تدلّنا على موت الألفاظ ، فإن للألفاظ حياة ، إن لها ميلاداً وموتاً ، من الألفاظ الشائعة في بنياننا لفظة : المشرقة ، فالمشرقة ، مثلثة الراء ، موضع القعود في الشمس بالشتاء ، وقد حافظت العامّة على هذا المعنى في لغتها ، فلم تنحرف هذه اللفظة عن معناها الفصيح ، وإذا كانت المشرقة مثلثة الراء فإن العامّة اختارت فتح الراء في كلامها ، إلاّ أن هذه اللفظة التي عاشت في دمشق زمناً طويلاً قد أوشكت أن تموت ، والسبب في ذلك عمراننا الحديث ، فالدور القديمة لها مشرقات ، وكان أهل هذه الدور يقعدون فيها بالشتاء للدفء أو ينشرون فيها غسيلهم ، فهي من أصل الدور وهي غير سطوح الدور ، ولكن عمراننا الحديث قد خلا من هذه المشرقات فأكثر الأبنية أصبحت ذات طيقان وكلّ طاقٍ خالٍ من المشرقة ما خلا الطاق الأعلى فإن له سطحاً فأهله يقولون : السطح ولا يقولون : المشرقة ، وعلى هذا نجد أن هذه اللفظة التي لا تزال تعيش في حارات دمشق القديمة قد ماتت في الحارات التي استفحل فيها العمران الحديث .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net